٤

الإغراء

أقبل أبناء عبد المطلب فهيَّئوا لأبيهم مجلسه فى المسجد غير بعيد من بئره التى كشف له. وأقبل الشيخ بعد قليل مُشرق الوجه باسم الثغر، فأسرع إليه أبناءه يلقونه بالتحية ويقرءون عليه السلام. وأقبل عليهم يحييهم ويدعو لهم، حتى إذا أخذ مكانه أشار إليهم فجلسوا من حوله، قال قائل منهم وعلى ثغرة ابتسامة فيها حب وفيها دعابة، وفيها غيرة لا تكاد تبين: لم يأت بعدُ، وما علمناه منذ حين إلا نؤوم الضحى. قال الشيخ وابتسم كالمغضب: حَسبك! فكلكم قد أدركه الضحى ولما يرفع رأسه عن الوساد. ثم أخذوا فى حديث القافلة التى كانت تتهيأ للرحلة إلى الشام، وأخذ أبناء الشيخ يتحدثون إلى أبيهم بما أعد أغنياء قريش من عُروض التجارة لتحمل إلى بُصرَى وما يليها من بلاد الروم.

وهم فى الحديث وإذا الفتى يُقبل وَسيمًا قسيمًا مستقيم القد مُعتدل القامة، قريب الخُطا شاخصًا بصره على السماء، حتى إذا دنا من أبيه أقبل عليه فجأة، وتلقاه الشيخ رفيقًا به عطوفًا عليه، ثم أذن له بالجلوس وأدنى مكانه منه، وأعرض عنه حينًا كأنه يسمع لحديث أبنائه عن القافلة كيف تُهيأ، وممن تكون، ومتى تفصل. ثم التفت إلى ابنه الشاب وقال له وهو يبتسم: ما أردى يا بُنى إلا أنك قد أحببت النعمة وآثرت لين العيش! وكلنا قد أحب النعمة كما تحبها، وكلنا آثر اللين كما تؤثره، وكلنا قد لزم أهله حتى كاد ينسى كل شىء، ولكن الأيام تُنبه الغافل، وتوقظ النائم، وتُذكر الناسى، وإنى لأحب أن أنبهك قبل أن تُنبهك الأيام، وأن أوقظك قبل أن توقظك الأحداث، وأن أذود عنك النسيان قبل أن تذوده عنك الخطوب. وخيرٌ لك يا بنى أن تترك النعمة الآن لتعود إليها بعد حين من أن تظل فيها مُغرقًا وعليها حريصًا ولها لازمًا، حتى تضيق بك وتنفر منك، وتنصرف عنك إلى غير رجعة. وفى الرحلة يا بنى مع عمك الأدنيين رياضةٌ لك يسيرة على احتمال الصعاب واقتحام العقاب، وتسلية لك هينةٌ عن هذه اللذة المتصلة والنعيم المقيم. وما أشك فى أنك ستترك أهلك كارهًا لذلك ضيقًا به، ولكنك ستتعذب الفراق وتستلذ النوى، وتجد من ذكر أهلك على نزوح الدار وبُعد المزار، مثل ما تجد من حب أهلك والدار قريبة والمزار يسير. فهيئ نفسك للرحيل مع العير،واحرص على ألا تعود اقل ثراء من أمثالك الذين سيرحلون إلى الشام من شباب قريش. وقد أجمعتُ وأجمع إخوتك أن نكل إليك ما عندنا من هذه العروض التى تجمعت لنا منذ أشهر لتحملها لنا إلى بلاد الروم، فتتاجر لنا فيها، وتقاسمنا ما تُغل علينا من ربح. والرأى أن تسعى فى أصهارك بنى زُهرة بمثل ذلك، فتحمل عنهم عُروضهم وتقضى لهم حاجاتهم. وما أظن أنك صفر اليد، فقد تستطيع أن تتخذ لك حظًا من تجارة تقصرها

على نفسك، حتى إذا أرجعت إلينا كنت موفور الحظ من المال بما يجتمع لك من ربح هذه التجارة كلها. كلنا يا بنى قد رحل إلى الشام حينًا وإلى اليمن حينًا وإلى العراق حينًا آخر، ومنا من أمعن فى الرحلة حتى بلغ مصر. ومنا من أغذّ[1] السير حتى عبر البحر إلى بلاد الحبشة. ومنا من أبعد السفر حتى انتهى إلى أعماق فارس. ولكنى أرى لك أن تُمعن ف يغير إسراف، وأن تبعُد دون أن تنقطع عن جماعة من قومك. والأيام خليقة أن تغريك بالأسفار البعيدة والرحلة المتصلة. فقم يا بنى فأصلح من شأنك، وَهيئ أهلك لهذا الفراق، فما أظن أن آمنة سترضاه أو تستريح إليه.

قال ذلك فى لهجة ملؤها الحنان المقنع، والجد الذى لا يحتمل الجدال ولا يُبيح رَجْع الجواب. وكان الفتى يسمع له راضيًا، تظهر على وجهه آثار الطاعة والثقة. حتى إذا فرغ من حديثه أطرق الفتى غير طويل، ثم رفع رأسه وهم أن يتكلم فلم يجد ما يقول، فنهض مسرعًا حتى خرج من المسجد ومضى أمامه لا يلوى على شىء. وكانت شمس الضحى قد ارتفعت حتى قاربت أن تستوى فى كبد السماء، وكانت أشعتها الحارة المحرقة قد أخذت تُلح على الأرض والناس، حتى قهرتها وقهرتهم أو كادت. والفتى ماض فى طريقه كأنه السهم لا يلتفت يَمنةً ولا يسرةً، ولا يكاد ينظر إلى أبعد من مواقع قديمه. وإنه لفى ذلك وإذا صوتٌ عذب يأتيه من قريب بهذا البيت:

يا مُسرعًا والناسُ من حوله يَسعون لم يأن لغاد رَوَاح

فيهم أن يقف، ولا يكاد يفعل حتى يأخذه صوتٌ آخر ليس أقل عذوبةٌ ولا حسنَ وقع فى النفس من ذلك الصوت الأول:

يا مطرقًا والأرض من حوله يَزينها حسنُ الوجوه الصباح

هنالك يقف الفتى ويلتفت صوب الصوت، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يمسه صوت آخر فيه نعومة الحرير، وعذوبة الماء النمير:

عرج عَلينا فأقمْ ساعةً فعندنا إن شئتَ روحٌ وراح

---

(١) أغذ السير وفي السير: أسرع.

هناك وقف الفتى والتفت وهو يقول: ما رأيت كاليوم دُعاء ولا إغراء! وقد اتصل طَرفهُ بوجوه ثلاثة حسان، تُشرق بها كوًى ثلاث فى دار فاطمة بنت مُر الخثعمية. قال الفتى: ما خَطبكن؟ قالت إحدى الفتيات: ما خَطبك أنت؟ فيمَ إرقالك على هذا النحو ولما يَئنْ لشباب قريش أن يروحوا على أهلهم؟ وفيم تركت أباك وإخوانك وأترابك فى المسجد؟ هلا بقيت كما بقوا وانتظرت كما ينتظرون! قال الفتى فى صوت فهى دعابة الطامع ويأسُ المضطر إلى الإسراع: ما أنت وذاك؟ إن أدعهم فلأمر ما. قالت فتاة أخرى، إن تَدَعهم فلتحلُ إلينا فتحدثنا وتسمع منا ساعة من نهار. قالت ثالثة: هلم يا فتى اقبل، فما هذه ساعة حديث يُلقى من الكوى! إن الشمس لمحرقة وإن القيظ لشديد، وإنى لأؤثُر ما كنت فيه من الإرقال آنفًا على ما أنت فيه من الوقوف الآن. قالت إحداهن وكأنها تتغنى:

عــرّجْ علينــا فــأقمْ ســاعةً فعنـــــدنا إن شـــــئتَ رَوحٌ ورَاح

وهم الفتى أن يأبى، ولكنهن ألححن عليه، ومضين يدعونه ويُغرينه حتى استجاب لهن.

وما هى إلا أن دخل الدار وأغلق من دونه بابها، واقبل الفتيات عليه مبتهجات له رقيبات به: هذه تمسح رأسهن وهذه تمس وجهه، وهذه تأخذ بطرف ردائه، وهو يحاول أن يتقيهن وأن يمتنع عليهن، فلا يجد إلى شىء من هذا سبيلاً. وكانت فاطمة الخثعمية أطول هؤلاء الفتيات قامةً، وأوسمهن وجهًا، وأعذبهن حديثًا، وكانت على جمالها الرائع وحسنها البارع ذكية القلب، نافذة البصيرة، ضخمة الثروة، تعيش فى مكة مُترفةً ناعمة، من حولها عدد غير قليل من الموالى والأحلاف والرقيق على اختلاف أجناسه وتباين حظوظه من المهارة فى الفنون المختلفة التى كان يحسنها الرقيق بمكة فى تلك الأيام.

وكانت فاطمة الخثعمية بَرْزَةً[1] مُتبذَّيةً فى مكة بعض الشىء، لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم فى ألوان الحديث. وكان شباب قريش يحبون منها ذلك ويكلفون به، ويختلفون إليها إذا كان المساء، فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل، وربما أدرت عليهم فى الشتاء أقدح من خمر بَيسان، وفى الصيف أقداح من زبيب الطائف، ولم يكن عبد الله من هؤلاء الفتيان

(١) البرزة من النساء: التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون معها، أو الموثوق برأيها وعفافها، والبرزة أيضًا: بارزة المحاسن.

اللذين يألفونها ويختلفون إلى مجلسها. وأين هو من ذلك وإنه لمن قوم حظهم من اللهو ونصيبهم من الاستمتاع بالحياة الفارغة ضئيل! وكان عبد الله حديث مكة فى هذه الأيام منذ هم أبوه أن يتقرب به إلى الآلهة وفاء بنذره القديم، فأنقذه الفداء من هذا الموت المنكر، كان حديث مكة وحديث نسائها خاصةً، يذكرون شبابه الغض الذى كان يُذوبه الموت، ويذكرون جماله الفاتن الذى كاد يحتويه القبر، ويذكرون هذا الخفر الجاد الصارم الذى لم يكن يُعرف فى فتيان قريش، ويذكرون هذه الفتاة السعيدة التى قَدر لها أن تكون له زوجًا. وكانت فاطمة الخثعمية أكثرهن حديثًا عنه، وأعظمهن إعجابًا به، وأشدهن شوقًا إلى لقائه. رأته يوم الفداء جلدًا صبورًا مبتسمًا للموت، لا يظهر على وجهه أثر من آثار الجزع حين كان أبوه يُقرع من دونه بالإبل، فكانت القداح تأبى أن تخرج إلا عليه. ورأته بعد أن تم الفداء وَرُفعَ عند نذير الموت، فعاد بين أمه وإخوته مبتسمًا للحياة كما كان يبتسم للموت فى هدوء واطمئنان، لا يزدهيه قرح ولا يستخفه طرب، ولا يخرجه عن طوره أمل فى الحياة السعيدة والنعيم المقيم.

من ذلك اليوم وقع الفتى من نفس فاطمة موقع قطرة الندى من الزهرة الغضة عند إشراق الصبح، فأحبته وتمنته، وكلفت به وحرصت عليه. وقضت أيامًا لا تتحدث إلا عنه، وليالى لا تفكر إلا فيه. وقد تحدث إليها الناس من مساء ذلك اليوم بأن آمنة بنت وهب قد خُطبت له وستزف إليه عما قريب، فرأى الناس على وجهها جزعًا باديًا وحزنًا عميقًا؛ وكانت كثيرًا ما تتحدث إلى أترابها بما تجد من حب وما تحتمل من ألم. ولست أنا الذى شبه موقع الفتى من نفسها موقع قطرة الندى من الزهرة، إنما هى صاحبة هذا التشبيه. فقد كانت تقول لصاحبتها عاتكة بنت سهم: أتعرفنى كيف تنعم الزهرة حين يمسها الندى إذا أسفر الصبح؟! فكذلك نعمتُ حين مسنى حبُ هذا الفتى يوم الفداء. وكانت تقول لها: أتعرفين كيف تشتاق الزهرة إلى قطرة الندى إذا ارتفع الضحى واشتد عليها حر الشمس كلما تقدم النهار؟! فكذلك أشتاق أنا إلى هذا الفتى كلما بَعُدَ العهد بينى وبينه، وكانت تقول لها: أتعرفين كيف تهيم الزهرة بقطرة الندى إذا أظلها المساء وأقبل الليل، وأحست بَردَ السحر وعرفت أن سقوط الندى قريب؟! فكذلك أنا أهيم بهذا الفتى إذا أشرق الصبح وقرُب غدو قريش إلى مجالسها فى المسجد، أو إذا اعتدل النهار وآن لقريش أن يروحوا إلى أهلهم. وكانت عاتكة بنت سهم ترثى لها وتشفق عليها، وربما بلغ منها الرثاء والإشفاق أن تسخر منها بعض الشىء،فكانت تقول؛ ويحك يا فاطمة! إنك لمن قوم بُداة جُفاة فيهم خشونة وغلظة، وما أعرف أن تجار قريش يخافون على أنفسهم وأموالهم فى رحلة الشتاء أحدًا كما يخافون هذا الحى من خثعم. ولولا خوفهم من هذا الحى، وإكبارهم لبأسه وبطشه، لما أيسر أبوك، ولما كان له هذا المال الضخم، وهذا العدد الكثير من الرقيق والأحلاف، ولما اتخذ لك هذه الدار الأنيقة الواسعة فى مكة تقيمين فيها كما يقيم أغنى بنات

قريش فكيف نبتت هذه الزهرة الرقيقة الأنيقة فى تلك القبيلة التى لا تشتقا إلا إلى الدماء! وكانت فاطمة إذا سمعت هذا الحديث ابتسمت عن نفس حزينة وقالت: ما أشد جهلكم يا أهل المدّر بما يُظلّ الوَبر من نفوس حية وقلوب رقيقة وأكباد يعبث بها الحب ويعصف بها الغرام.

فلما طال على الفتاة أمر هذا الحب وثقل عليها، رقَت لها عاتكة بنت سهم، ورقت لها سملى بنت خُزَيم، وقالت لها: أقلى عليك الخطب وهَونى علكى الأمر، فليس هذا الفتى إلا غلامًا من قريش له رقة قلوبهم وفيه حبهم للحياة وكلفهم بلين العيش. وقد أصهر اليوم إلى بنى زُهرة، وما أيسر أن يُصهر غدًا إلى خَثعم. وما نحسب أنك تكرهين أن تكونى زوجه الثانية. وما نحسب أنك تخافين أن تغلبك آمنة على قلبه؛ فقد يكون لآمنة جمالها ومكانها من قريش، ولكن لك جمالك، ومالك، ومكانتك من خثعم. فالرأى أن نجمع بينك وبين الفتى، وأن يحس منك حبًا له وميلاً غليه، فلعل ذلك أن يغريه بالخطبة. وأى شىء أحب إلى أبيه وإخوته من أن يُصهروا إلى عظيم خثعم فيأمنوا شياطينها وشياطين مُراد، وهذه الأحياء التى تأخذ عليهم طريقهم إلى بلاد اليمن!! وكذلك دبر الفتيات أمرهن وجعلن يرصدن للفتى إذا غدا ويرصدن له إذا راح، حتى ظفرن به فى هذا اليوم.

فلما أغلق من دونه ومن دونهن الباب لم يلبثن إلا قليلاً حتى نظر الفتى فإذا فاطمة وحدها قائمة أمامه، ترسل إليه من عينيها الحادتين نارًا محرقة عَذبة، فيها حب لا حد له، ورغبةٌ لا حد لها، وحنانٌ لا حد له أيضًا قال: يا هذه غُضى جفونك عنى، فإنى أجد للحظك مسًا لاذعًا. قالت وأنت، فامدُد إلى عينيك؛ فإنى أجد فيهما شفاء لما يعذبنى من سقم، وريًا لما يُحرق فؤادى من صَدى، قال: ما لهذا أقبلت، فأين صاحبتاك؟

قالت: ما أنت وصاحبتاى! إنما كانتا صديقتين أعانتا على أمر، ثم مضت كل وحدة منهما إلى وجهها. أقم معى ساعة أو بعض ساعة، فقد طالما تمنيت هذا اللقاء، واشتقت إلى هذه الخلوة، وسمت نفسى إلى أن يتصل بينك وبينى الحديث. قال: يا هذه، ما أحب هذا إلى وآثره عندى! إن فى وجهك لإشراقًا حلوًا، وغن فى طرفك لسحرًا فاتنًا، وإن فى صوتك لعذوبة تخلبُ العقول وتستهوى الألباب؛ ولكنى عن هذا كله عَجلٌ. قالت: فما يُعجلك عنه، وإلى أين كنت تريد؟ قال: يُعجلنى عنه شغلٌ شاغلٌ وهمُ طارئ. ولقد كنت أريد على أبى قُبيس حيث يقيم أهلي. قالت: أقم يا زين قريش! إن إبا قُبيس لن يَريم[1]، وإن أهلك لن يبرحوه، وإنّ خير ما فى الأمكنة والدور أنها ثابتة باقية لا تتحول ولا تزول إلا فى بطء، وإن شر ما فى الزمان أنه لا يعرف

(١) لن يريم: لن يبرح ولن ينتقل.

الهدوء ولا الاستقرار ولا يحب السكون والاطمئنان، إنما هو انتقال دائم وحركة متصلة لا تستطيع الجمع بين أطرافه بل لا تستطيع الجمع بين أجزائه. أقم! فستبلغ أبا قبيس فى أى وقت شئت، وستلقى أهلك فى أى لحظة أحببت، ولكن هذه الساعة إن تُفلت منك فلن تعود إليك، ولعلك لا تحرص عليها ولا تحفل باستدراكها، فاعلم أنى عليها حريصة ولها مُحبة. واعلم أنى مشفقة أن تضيع، وفقد تعلقت نفسى بها منذ يوم الفداء. لقد رأيتك مقبلاً إلى المسجد، ورأيتك منصرفًا عنه، ورأيت على وجهك ابتسامةً واحدةً للموت وللحياة جميعًا. لم يكن وجهك مظلمًا حين كنت تنتظر الموت، ولم يزدد وجهك إشراقًا حين رُدّت إليك الحياة. ولقد ارتسمت فى نفسى ابتسامتك هذه فلم تفارقها، ولم أرَك منذ ذلك اليوم ولن أراك إلا مبتسمًا. أقم يا فتى! وإنَ صوتك ليسبغ على حنانً حلوًا يُدنينى منك ويدفعنى إليك. أقم! وليكن بينى وبينك طَرَفٌ من حديث. من يدري! لعل هذا الحديث أن ينتهى بك وبى إلى شىء. قال: وما عسى أن يكون هذا الشىء؟ إن شخصك ليَثبتنى فى هذا المكان، وإنى لأجد فى قلبى شيئًا يدفعنى عنه، وإن نفسى لمضطربة بين هذين الداعيين الملحين: يُهب بى أحدهما أن أقم، ويهيب الآخر أن أنصرف قالت: أقم يا فتى، وخلاك ذمّ، فما ينبغى وقد خلت دارنا أ،تخرج منها ولم تُصب عندنا شيئًا من القرى. قال: لست ضيفًا ولا طارقًا، وليست الساعة ساعة قرى، دعينى أنصرف الآن كارهًا، وما أظن إلا أنى عائد إليك إذا كان المساء. ثم هم أن ينصرف ولكنها أقبلت عليه ورنَت إليه بطرف ساحر فاتر أثبته فى مكانهن فمسته بيدها مسًا رقيقًا وقالت: وكذلك يذهب عبثًا ما أنفقتُ من جهد، ويمضى سُدى ما بذلتُ من حيلة، وتنصرف ولما يتصل بينك وبينى الحديث، ولما تتصل بين قلبى وقلبك الأسباب!! أقم فلا بد من أن أسألك، ولا بد من أن تجيب. انظر إلى هذه الوسائد، لقد هُيئت لك منذ اليوم فاجلس. وانظر إلى هذه الجارية! لقد أقبلت تحمل شيئًا من شراب. فجلس الفتى وجلست منه غير بعيد. وأقبلت جارية سوداء تحمل إبريقًا وأقداحًا فوضعت ما فى يدها وملأت قدحين وقدمت إليه أحدهما وهى تقول: دونك شيئًا من زبيب الطائف يا زين قريش، ثم قدمت إلى مولاتها قدحًا آخر وانصرفت قالت فاطمة: أنبئت منذ حين أنك قد خطبت آمنة بنت وهب وأنها قد زفت إليك. أسعيدٌ أنت منذ أعرستَ؟ أنا عمُ البال أنت منذ استأنفت حياتك الجديدة؟ قال: وما يمنعنى أن أكون سعيدًا ناعم البال، وإنى لأجد عند آمنة أكثر مما كنت أريد؟! قالت: فإن لك شىء يكسبه الرجال وينفقون حياتهم فى السعى إليه، وإنى لآخذ فى أسباب ذلك، فقد كنت حين رأيتنى رائحًا قبل أن يأتى لى أن أروح، ذاهبًا إلى حيث أهيئ للرحلة. قالت وقد ظهر عليها الخوف: أمرتحلٌ أنت؟ وإلى أين؟ قال: إلى حيث ترتحل قريش. قالت: فإن مثلك لم يُخلق لهذا العناء: أقم يا فتى: فإن المال كثير، والثراء موفور، وإن لك من ذلك ما أحببت، وإنّ لك من ذلك لفوق ما تحب. إنك لتعرفُ أن لمرّ الخثعمى إبلاً ترعى خارج مكة لا يكاد يحصيها العد. وإنك لتعلم أن لمرّ الخثعمى عند تجار قريش وصيارفهم من الذهب والفضة والعروض شيئًا كثيرًا.. وإنك لتعلم أن يد فاطمة

بنت مُرّ فى هذا كله مطلقة، فليس لى أخ وليست لى أخت، فثروة أبى خالصة لى لا يشاركنى فيها أحد، وهى لمن سأختاره بعلاً. افترضى أن تكون هذا البعل؟ قال: هذا شىء تتحدث به إلى النفس منذ رأيتك وقبل أن تذكرى لى مالك الضخم وثراءك الموفور. وأن فيما أرى من جمالك وعقلك وكمال خُلقك وحُسن منزلك من خثعم، لما يحببك إلى ويعزينى بما تعرضين على، فهل لك فى أن تمنحينى سعةً من وقت وشيئًا من مُهلة، لا لأفكر ولا لأروى فقد فكرت ورويت، ولكن لأتحدث فى ذلك على أبى، ولأنظر كيف يقع ذلك من آمنة، فغن عهدها بالعرس حديث، وعزيز على أن أسوءها ولما يمض على زواجنا إلا أمَدٌ قليل. قالت: لك ما شئت من سعة، ولك ما شئت من مهلة. وعزيزٌ على أن أروع آمنة أو أن أسوءها، فما جَنتْ على شرًا، ولا قدمت إلى سوءًا. ولكنى أحببتك وآثرتك وكرهت لك ما يذهب بنضرة كثير من فتيان قريش من هذا الرحيل المتصل الذى يضيع عليهم الصيف والشتاء. وَلتعلمَن آمنة أنى لا أريد لكما إلا خيرًا، ولا أوثركما إلا بأحسن ما تُحبان، ولن أكون لآمنة علة[1]، ولأكونن أقرب إليها وأعطف عليها من هالة بنت وُهَيب. فَكر إذا ما وسعك التفكير، ورو إذا ما وسعتك التروية، وتَحدثْ إلى أهلك وإلى أبيك، وانتظر بالخطبة والزفاف ما شئت أن تنتظر. ولكن أقم عندى هذا اليوم؛ فإنى أجد فى جوازك لذة وفى حديثك متاعًا، وإنى أحس أنك تجد مثل ما أجد وتحب مثل ما أحب.

ثم دنت منه وأقبلت عليه بوجهها المشرق الجميل، وهى تقول فى صوت هادئ عذب أدنى إلى الهمس منه إلى الجهر: هلم، فقد خلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب، وقد وهبت لك نفسى فهب لى نفسك، ولنقضه يومًا حلوًا سعيدًا هنالك ارتد الفتى عنها وقد أخذه خوف رفيق وإشفاق هادئ وهو يقول:

أمـا الحـرامُ فالممـاتُ دُونَـهْ والحيـــلُ لا حَـــلَ فأســـتبينَهْ

فكيف بالأمر الذى تَنوينه

قالت: ما أشد ما ترتاع لما لا يروع! إنى لأعرف فيك نُسك أبيك. قال: لا روع ولا نُسك، ولكن دعينى أنصرف، ولأعودن إليك مع المساء بما ترضين وبما أنا عليه حريص. قالت: أصادقٌ هذا الوعد، أم تَحِلَّة تخرج بها مما نحن فيه؟ قال: بل وَعْدٌ صادق أنا على صدقه أحرص منك.

---

(١) العلة: الضرة.

نهض ونهضت، ومضى متثاقلاً، وتبعته وهى تقول: لقد صبرتُ أيامًا وأيامًا، فما يمنعنى أن أصبر بعض يوم!! اذهبْ سالمًا وَعُدْ موفورًا! فلن أبرح مجلسى هذا حتى تعود!

وما كاد يتجاوز باب الدار حتى مضى فى سرعة تشبه العدو، لا يحس وهَجَ الشمس الذى كان يلفح الوجوه، ولا يكاد يرى من حوله شيئًا، قد امتلأت نفسه بما رأى، وامتلأت بما سمع، وجاشت فى قلبه الآمال العراض. لقد كان يَقيس ما كان يعده أبوه من ثراء بعد طول الرحلة وثقل الجهد وكثرة الاحتمال وفراق الأهل، إلى ما رتبت له فاطمة فى غير نأى ولا مشقة، ولا اغتراب ولا فُرقة. فكان يأخذه شىء يشبه الدوار حين يرى هذا الفتى وقد أنضاه سفر غير قاصد، ثم عاد مجهولاً مكدودًا ولم يُفد إلا دراهم ودنانير؛ وهذا الفتى الذى يسعى فى مكة رخى البال موفور النعمة، لم يلقَ جهدًا ولم يتعرض لأذى، وإنما قال كلمة ليس غير، فإذ هو أكثرُ قريش مالاً، وأعظمها ثراء، وأعزّها جانبًا، إليه حماية قريش حين تأخذ طريقها إلى اليمن.

وأنساه هذا التفكير نفسه حتى مر بدُور بنى هاشم فلم يَلو على أحد ولم يقف عند شىء، لولا أن صوتًا ناداه إلى أين يا عبد الله؟ وما هذا المضى إلى غير غاية؟ولكنه سمع لهذا الصوت فالتفت، فرأى سمراء تسعى قريبةَ الخطا، كئيبةَ الوجه، كاسفة البال، فوقف لها حتى دنت منه وهى تقول: لشد ما تُسرع فى العدو، ولشد ما تذكرنى بأخيك! قال: ما أرى أنك تُريدين هالة أو فاطمة بنت عمرو؟! قالت: بل إلى فاطمة أريد، فقد مسها منذ حين ما مسنى منذ دهر فانصرف عنها أبوك بعض الشىء إلى عرسه الجديدة. ولولا أن لفاطمة فيك وفى إخوتك عزاء عما تجد من هجر عبد المطلب لكان الخطب عليها أثقل ولها أفجع. فأنا أختلف إليها فى مثل هذا الوقت من كل يوم لأسليها وأسرى عنها، فقد أخذ عبد المطلب لا يروح إلى هالة. وأنت فما أعجلك عن أبيك وعن إخوتك؟ أمشوقٌ أنت إلى آمنة ولما يعتدل النهار؟ قال: إنك لتعلمين ضعف سلطان الشوق علينا آل عبد المطلب، وإن أحدنا ليتحرق شوقًا ويتفطر جَوًى فلا يبلغ منه ذلك أن يتحول عن مجلسه أو ينصرف عن وجه قصد إليه. ولكن عبد المطلب قد لقبنى منذ اليوم بحديث أعجلنى عنه وعن إخوتى، ودفعنى إلى أن أسرع إلى الرواح. إنه يريد أن أفصل مع القافلة إلى الشام، فلا بد من أن أتهيأ لذلك وأهيئ له آمنة، وإنى لأخشى أن يكون موقع ذلك منها شديدًا. قالت: لا بأس عليك، إن تكن فتًى من قريش فآمنة فتاة من قريش، وما أظنها إلا هيأت نفسها لحياتنا جميعًا، وأخذت نفسها بالصبر على فراق البعل أكثر العام. اذهب مُصاحبًا، فلن ترى من آمنة إلا ما يحب أبوك وما ستحب أنت بعد حين وإن كرهته الآن. وكانا قد بلغا بيت فاطمة، فدخلت هى، ومضى الفتى أمامه لم يعرج على أمه ليحييها أو ليقدم إليها بعض العزاء. فلما انتهى إلى لآمنة فى بيتها قامت إليه طلقة الوجه مُشرقة الجبين، وتلقته مبتهجة بلقائه، ولم تسأله عما أعجله عن قومه. وهل كانت تشك فى ذلك أو ترتاب! إنما هو الحب الذى كان يخرجه من

البيت وقد خلت دور بنى هاشم من الكهول والشباب، ويرده إلى البيت ولما ينهض كهول بنى هاشم وشبابهم من أنديتهم ومجالسهم. ولكن آمنة رأت على وجه زوجها شيئًا غير ما كانت قد تعودت أن تراه: رأت حيرة لا تكاد تظهر، وهمًا لا يكاد يبين. فهمت أن تسأله، ولكنه سبقها إلى الجواب فقال: عزيزٌ على يا ابنة وهب أن ألقاك بغير ما تعودت أن ألقاك به من البشاشة والبشر، ولكن حياة قريش لا تعرف البشاشة الدائمة ولا البشر المتصل. قالت: فأنت مرتحل إذًا مع القافلة؟ كذلك يريد أبوك، وكذلك يريد إخوتك، وكذلك يريد مكانك من قريش. ثم كفكفت عَبرة كانت تريد أن تنهمر، وردت إلى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات والهدوء، وقالت وهى تبتسم فى كثير من التجلد والصبر: وهل عزت قريش وأثرت إلا بالرحيل! إنما عز قريش وثَراؤها ثمرة لجهد الرجال وصبر النساء: أولئك يشقون بالرحلة المتصلة، وهؤلاء يشقين بالصبر الطويل. وماذا أعددت لهذه الرحلة؟ قال: سنتحدث فى ذلك بعد حين، ولكنى أريد أن تستقبلى هذا الفراق بصبر لا يشوبه التصبر، وجَلَد لا يشوبه التجلد، وقلب لا يُفسد عليه الحزنُ أمرهَ. انتظرى عودتى، فلعلى أعود موفورًا مُوسرًا، ولعل ذلك أن يهيئ لنا حياة أيسر وعيشًا أدنى إلى اللين مما نحن فيه، فلو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أرد نفسى غليه من الاحتمال حين أرى جيدك عاطلاً لا تزينه هذه العقود التى تزين أجياد أترابك من نساء قريش، ولو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أرد نفسى إليه من احتمال حين أرى أنك لا تستمتعين من طيبات الحياة بمثل ما يستمتع به غيرك من نساء بنى هاشم! قالت: وما ذاك، وأين يكون الحلى وأين يكون النعيم من هذه الساعات الحُلوة التى نقضيها إذا كانت القائلة أو إذا جَنَّ الليل!.. وأخذ الحديث يصفو ويعذب ويرق ويلين بين الزوجين، حتى أنسى عبد الله أمر الرحلة، وأنسى حديث فاطمة وما وعدته وما صوّرت له من أمانى وآمال، ولم يذكر عبد الله إلا هذا الوجه الجميل، وهذه النفس السَّمحة، وهذا الخلق الرّضى، وهذا الحديث العذب يقع من قلبه مواقع الماء من ذى الغلة الصادى. هنالك عاد إلى وجه الفتى إشراقه وبهجته، وعاد إلى قلب الفتى غرامه وحبه. وهنالك انتصر الشباب على الحزن والسرور معًا. ثم أقبل الأصيل فأسبغ على مكة وما حولها رداءً خفيفًا من الحزن. وخرج الفتى من عند آمنة راضيًا ناعم البال، ولكن صوتًا بعيدًا يبلغ قلبه فيمسه مسًا خفيفًا. خرج الفتى ليسعى فى تهيئة رحلته، ولكن هذا الصوت البعيد أخذ يدنو من قلبه قليلاً قليلاً:

عــرجْ علينــا فــأقمْ ســاعةً فعنـــــدنا إن شـــــئت روْحٌ وراح

ومع أن الفتى قد ولى وجهه شطر بنى زُهرة ومضى فى طريقه إليهم، فقد شغله هذا الصوت عن بنى زهرة وعن عُروضهم وتجارتهم، وشغله عن القافلة ورحلتها من غد، وشغله عن

نصح أبيه وتشجيع إخوته، وشغله عن لك شيء. ولم لا! لقد كان يدنو منه شيئًا فشيئًا، وكان كلما دنا منه ارتفاع واتسع وأخذ عليه كل سبيل، حتى لكأنه كان يسمعه من كل ناحية، وينظر فإذا هو فى طريقه لا إلى دور بنى زهرة، بل إلى دار فاطمة بنت مُر. وينظر الفتى فإذا هو أمام الدار، وإذا هو يدخل من الباب، وإذا هو يرى الجارية السوداء تلقاه باسمةً وتجيبه قائلة: أسرع يا زينَ قريش، فقد أبطأت وطال انتظار مولاتى لك وينظر الفتى فإذا هو فى ذلك المجلس الذى ترك فاطمة فيه آخر الضحى، وإذا فاطمة قد قامت له وأقبلت عليه، ولكنه لم يفطن لشيء ما كان ليفوته لو أن أمره كله قد كان غليه حقًا. لم يفطن لهذا الفتور السريع الذى ظهر على فاطمة حين وقع بصرها عليه. على أنه لم يلبث غير قليل حتى أحس هذا الفتور وأنكره؛ فقد تلقته الفتاة فرحةً بلقائه أول الأمر، ولكنها لم تكد تُثبت بَصَرها فيه حتى هدأ هذا الفرح، ودعته فى رفق إلى أن يجلس. وما كاد يستقر فى مكانه حتى أقبل عليها جذلان مسرورًا وهو يقول: رأيت أنى لم أكذبك ولم أخلفك، وإنما أقبلت مع المساء! لئن كانت الدار قد خلت لنا فى الضحى لهى الآن أدنى إلى الخلو. ولئن كان الرقيب قد نأى عنه فى الضحى لهو الآن أمعن فى النأى. ولئن كان النعيم قد عنّ لنا فى الضحى لهو الآن أدنى منالاً. قالت وقد أطالت النظر إليه والتحديق: ليتك لم تعدْ، وليتك إذ وعدتَ أخلفت موعِدَك!.. فحدثنى ما صنعت منذ فارقتنى؛ فإنى لا أرى فى وجهك ما كنت أراه فى الضحى من الإشراق، ولا أرى فى جبينك ما كنت أراه فى الضحى من الضوء، ولا أسمع فى صوتك ما كنت أسمع فى الضحى من هذه النغمات الحلوة التى كان يلمؤها الحنان! إنما أنت الآن فتى من فتيان قريش يبتغى لذةٌ ومالاً. إن فى أحداث الزمان لعجبًا! ما أسرع ما يتغير الرجال! قال: وأين تَرينَ هذا التغير؟ وماذا تُنكرين منى؟ لقد كنت بك مشغوفًا فى الضحى، وكنت أدافع هذا الشغل، ولقد كنت مُقبلاً عليك فى الضحى، وكنت أخفى هذا الإقبال. فالآن وقد أرسلتُ نفسى على سجيتها، وتركت قلبى يعرب عما يجد، ويصور ما يحس تلقيننى هذا اللقاء! هلم! لقد خلت لنا الدار، ونأى عنا الرقيب وأمكنت لنا الفرصة.

قالت: لقد كنتَ تفكر فى الضحى أو تريد التفكير، وكنت تروى فى الضحى أو تريد التروية، فالآن دعنى أفكر، وهب لى سَعة من وقت؛ فإنى لا أدرى ما الذى يصرفنى عنك ويخيفنى منك. ولو أنصفت نفسك وأنصفتنى لانصرفتَ عنى الآن ومضيت فيما كنت فهى من تهنئة رحلتك إلى الشام!

قالت ذلك ونهضت متثاقلة، فمضت حتى اختفت. ولبث الفتى حائرًا لا يدرى ماذا يأتى من الأمر، وكأن حجابًا قد أزيل عنه، وأمرًا قد كشف له، فوثَبَ ومضى مُسرعًا حتى جاوز الباب وأخذ طريقه إلى بنى زُهرة. وقضت فاطمة ليلاً ثقيلاً، حتى إذا كان الصبح أقبلت عاتكة تسعى تريد أن تعلم علمها، فرأت فتاة محزنة كئيبة؛ فلما سألتها عن خطبها قالت:

إنــى رأيـتُ مَخيلـةٌ عرَضـتْ فـــتلألأت بحنَـــاتم[1] القَطـــر

فلمأتهـا[2] نُـورًا يُضـيءُ لـهُ مـــا حَولـــهُ كإضـــاءة الفجـــر

ورأيتـــه شـــرفًا أبـــوء بـــه مـــا كـــل قـــادح زَنـــده يُـــورى

لله مـــا زُهريَـــةٌ ســـلَبَتْ ثوبيـكَ مـا اسـتلبتْ ومـا تـدرى!

قالت عاتكة: لقد ظننتُ أن حبكن فى البادية كحبنا فى الحاضرة، وما كنت أحسب أنه يتجاوز الشباب، ويرقى إلى السحاب!

قالت فاطمة: لا تهزئى، فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب!

---

(١) الحناتم: السحائب السود.

(٢) لمأتها: أبصرتها ولمحتها.

obeikandl.com